

تفسير ابن كثير

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا

هذه صفات عباد الله المؤمنين (الذين يمشون على الأرض هونا) أي : بسكينة ووقار من

غير جبرية ولا استكبار ، كما قال : (ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض

ولن تبلغ الجبال طولا) [الإسراء : 37] . فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا

مرح ، ولا أشر ولا بطر ، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من التصانع تصنعا ورياء ،

فقد كان سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم إذا مشى كأنما ينحط من صلب ، وكأنما

الأرض تطوى له . وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع ، حتى روي عن عمر

أنه رأى شابا يمشي رويدا ، فقال : ما بالك؟ أنت مريض؟ قال : لا يا أمير المؤمنين .

فعلاه بالدرة ، وأمره أن يمشي بقوة . وإنما المراد بالهون هاهنا السكينة والوقار ، كما قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها

وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا " . وقال عبد الله بن المبارك ، عن

معمر ، عن يحيى بن المختار ، عن الحسن البصري في قوله : (وعباد الرحمن الذين

يمشون على الأرض هونا) قال : إن المؤمنين قوم ذل ، ذلت منهم - والله - الأسماع والأبصار والجوارح ، حتى تحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ، وإنهم لأصحاء ، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة ، فقالوا : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن . أما والله ما أحزنهم حزن الناس ، ولا تعظم في نفوسهم شيء طلبوا به الجنة ، أبكاهم الخوف من النار ، وإنه من لم يتعز بعزاء الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات ، ومن لم ير الله نعمة إلا في مطعم أو في مشرب ، فقد قل علمه وحضر عذابه . وقوله : (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) أي : إذا سفه عليهم الجاهل بالسيئ ، لم يقابلوهم عليه بمثله ، بل يعفون ويصفحون ، ولا يقولون إلا خيرا ، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزيد شدة الجهل عليه إلا حلما ، وكما قال تعالى : (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) [القصص : 55] . وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا أبو بكر ، عن الأعمش ، عن أبي خالد الوالبي ، عن النعمان بن مقرن المزني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [وسب رجل رجلا عنده ، قال : فجعل الرجل المسبوب يقول :

عليك السلام . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما [إن ملكا بينكما يذب
عنك ، كلما شتمك هذا قال له : بل أنت وأنت أحق به . وإذا قال له : عليك السلام ، قال
: لا بل عليك ، وأنت أحق به . " إسناده حسن ، ولم يخرجوه . وقال مجاهد : (قالوا
سلاما) يعني : قالوا : سدادا . وقال سعيد بن جبیر : ردوا معروفا من القول . وقال الحسن
البصري : (قالوا [سلاما) ، قال : حلماء لا يجهلون [، وإن جهل عليهم حلموا .
يصاحبون عباد الله نهارهم بما تسمعون ، ثم ذكر أن ليلهم خير ليل .